



كامل السوطي

## فلسفة التأويل عند ريكور: ثنائية المنطق اللاهوتي والمنطق الفلسفي

يرى الباحث الجزائري عمارة ناصر في مقالة له في مجلة التسامح بأن هرمنيوطيقية بول ريكور تستخدم منهجاً لغوياً غير قادر على الإقناع بالعمق الكافي، ورغم أن منهج ريكور في الوقت نفسه يضع مهمة التأويل الفلسفي معنيةً بالخطابات غير الفلسفية كالدين والسياسة والأدب والقانون، إلا أن ريكور في ذات الآن يضع شرطاً يوضح حدود اشتغال الهرمنيوطيقا في تلك الفنون أو الحقول وهو أن يكون مصدرها تيولوجياً أو دينياً، حيث يصبح من الممكن أن تعمل فلسفة التأويل في مجال الرواية الأدبية على سبيل المثال مادام مصدرها أو أصلها تيولوجياً كرواية دان براون المسماة «شفرة دافينشي».

على شروط موضوعية لطبيعة ما.. ويقصد ريكور بذلك أن المنطق التيولوجي هو الحاكم المتعالي الذي يصبح الأساس في العمل الهرمنيوطيقي، إلا أن ذلك ينتج عنه إشكالية مهمة متعلقة بذات الفيلسوف الذي يقوم بالعمل الهرمنيوطيقي، فإذا كان مؤمناً أو أن ثقافته وأفكاره المسبقة منتمة إلى العقيدة نفسها التي يمثلها النص فإنه بذلك سينطلق مع افتراض أن جميع المقدمات التيولوجية التي يقدمها النص صحيحة ولا ريب فيها، فتبرز إذ ذاك مفارقة أخرى ناقشها العديد من الفلاسفة ومنهم هايدنغر وجادامير وهي هل من الممكن أن يفضل المرء ذاته عن انطباعاته وتجاربه المسبقة ليكون قراءة تأويلية موضوعية للنص قيد التأويل؟ وهذه إشكالية تظهر مع الفيلسوف الذي لا ينتمي إلى نفس العقيدة التيولوجية للنص قيد التأويل، حيث يرى هايدنغر وتلميذه جادامير أن ذلك ضرب من المستحيل. وفي المقابل أشار بعض الفلاسفة أن المهم في الأمر لا يكمن في إشكالية فصل الذات عن الإنطباعات المسبقة ولكن في القيم المتعالية المستنبطة التي ستؤثر لاحقاً على الحياة الاجتماعية والقانون وغيرها من المجالات. وعلى افتراض أن الفيلسوف غير المنتمي إلى نفس العقيدة التيولوجية قد تمكن من فصل انطباعاته المسبقة عن ذاته فإنه سيكون لزاماً عليه أن ينطلق من مقدمات غير تيولوجية وإنما إلى المقدمات العقلانية للخطاب الفلسفي التي يستنبطها ريكور من الأصل التيولوجي مرة أخرى، لتنشأ بذلك حلقة أو دائرة غير منقطعة من الحجاجية المنطقية التي تراوح بين الخطاب العقلاني والتيولوجي كنهريين اثنين يغديان بعضهما البعض.

داخل التجربة الدينية المسيحية التي رافقتها مفارقة البعد التاريخي مع البعد الأسطوري، لكي ينتج عن ذلك في نهاية المطاف آثار متعددة للرمز على التجربة البشرية في مختلف المجالات كالقانون والأخلاق والسياسة. حيث ينشئ ريكور بذلك الازدواج نوعين من الهرمنيوطيقا، أحدهما تيولوجية مهتمة بالمعنى بغرض إحيائه وإظهاره والأخرى فلسفية الغاية منها تطوير الهرمنيوطيقا التيولوجية وتفعيلها في حياة الواقع الاجتماعية، تعملان كدائرة واحدة تغذي كل منهما الأخرى. وي طرح ريكور ما يسميه بالبلاغة المتكاملة، تلك التي تجمع بين المنطق التيولوجي والمنطق اللغوي لتكوين المنهج الحجاجي لهرمنيوطيقية ريكور، شاملة - أي البلاغة المتكاملة - ثلاثة مستويات وهي مستوى المنطق اللغوي شاملاً النحوي والمعجمي، ومستوى المنطق التيولوجي شاملاً القيمي والتداولي، واجتماعهما معاً يشكل المستوى الدلالي. ويرى عمارة ناصر أن بول ريكور يستخدم فلسفة هرمنيوطيقية مرتبطة بإشكاليات ثلاث لا تسير مساراً واحداً وإنما تتداخل وتتقاطع مستخدماً التعاليم المسيحية في معالجة تلك الإشكاليات، وهي إشكاليات الذات والنص والفاعل، أي ذات الفيلسوف والنص الإنجيلي الذي هو بصدد تأويله والفاعل الذي ينتج عن تلك القراءة التأويلية. ويقول ريكور في كتابه «في التفسير: فرويد نموذجاً» التالي: «إن التعليل الهرمنيوطيقي لا يمكن أن يكون جذرياً إذا لم نبحث في طبيعة الفكر التأملي نفسه عن مبدأ لمنطق المعنى المزدوج، مركباً وليس اعتبارياً، دقيقاً في تفرقاته، ولكن غير مختزل إلى منطق رمزي، هذا المنطق ليس منطقاً صورياً، ولكنه منطق متعال، إنه مؤسس على شروط الإمكانية وليس

ولكن من المهم أولاً الحديث عن ماهية الهرمنيوطيقا، حيث إنه من الممكن القول بأنها تعني فلسفة التأويل أو بشيء من الإسهاب هي المنهج الذي من خلاله نستطيع فهم النصوص الدينية بشكل خاص وبقية النصوص عموماً. ومن الممكن كذلك السؤال عن حاجتنا للهرمنيوطيقا، فلماذا نحتاجها وإذن كيف نشأت؟ حيث نشأت الهرمنيوطيقا بمعنية ظهور البروتستانتية خلال القرن السادس عشر كمذهب ديني منشق عن الكنيسة الكاثوليكية ومعارضاً لها، والسبب وراء ظهورها - أي الهرمنيوطيقا - هو أنه بوجود الكاثوليكية كمذهب سائد وحيد في أوروبا وفي معظم أقطار العالم، كان البابا أو صوت الكنيسة هو الذي يقرر للناس معاني أو تأويلات نصوص الكتاب المقدس، فلا حاجة إذن لمنهج مختلف لفهم النصوص مادامت هنالك مؤسسة دينية واحدة تحتكر تلك المعاني. وهذا حاصل في العالم الإسلامي بهيئات متعددة ومتباينة حيث يحتكر فهم القرآن أو المدونة الحديثية شخصيات محددة ومؤيدة إما سياسياً أو شعبياً أو كلاهما. تحولت الهرمنيوطيقية لاحقاً من حقل مهتم بفلسفة تأويل النصوص الدينية المسيحية إلى فلسفة تأويل النصوص بشكل عام، أي في شتى المجالات والحقول كالأدب والقانون. يطرح الكاتب عمارة ناصر سؤالاً مهماً حول عليّة استناد فلسفة تأويل بول ريكور على علم اللاهوت المسيحي حيث يرى أن ذلك عائد إلى شقين اثنين أحدهما هو حقيقة أن بول ريكور مسيحي الديانة ولذلك لن يكون من المستغرب أن يكون مدافعاً عنها عاملاً عمل الفيلسوف الذي سيخرجها من قبضة الحداثة إلى القيم العملية التي يؤطرها منهج خاص بها. أما الشق الثاني فهو متعلق بحياة الرمز